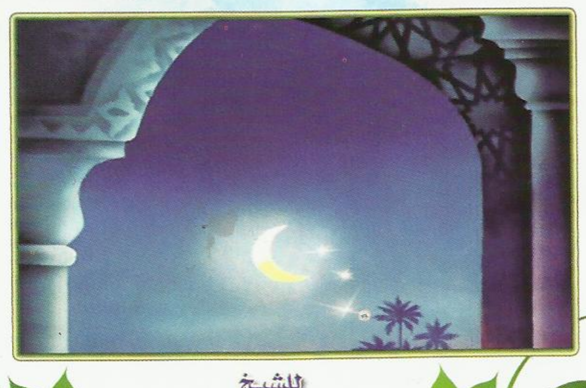
السماء والسماوات





للشيخ

علي القرني





فضيلة الشيخ

على عبد الخالق القرني

اعتنى به وخرجه

هندي صابر قاسم





فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

القرني ، علي عبد الخالق
السماء والسماوة
اعتنى به وخرجه/ هندي صابر قاسم
الجيزة / مكتبة أولاد الشيخ للتراث ١٢ X ١٧
٦٤ص ، ١٧سم ط١ - ٢٠٠٩
تدمك : 3 - 146 - 371 - 977
رقم الإيداع : ٢٠٠٩/١١٦٦٥ ديوى ٢١٣
١ - الوعظ والارشاد.
أ - قاسم هندي صابر (مخرج).
ب - العنوان.

مكتبة أولاد الشيخ للتراث



٣٦ ش اليابان - الهرم ت/ ٣٥٦٢٨٣١٨
٦٣ ش المنشية - فيصل ت/ ٣٧٤١٠٧٠٤
٥ درب الأتراك الأزهر ت/ ٢٥١٤٨١٤٩

الشركة الفنية للطباعة
٠٢/٣٧٧٧١٠٣٩

• • سمو ماضينا وسماوة حاضرنا • •

الحمد لله رب العالمين، ولي الصالحين، ولا عدوان إلا على الظالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله الأولين والآخِرين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله إمام المجاهدين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ناشري لواء الدين، وعلى من تبعهم من سلف هذه الأمة وخلَفها ممن جاهد وبذل ورافق ونافح في كل وقت وحين .

معشر الإِخوة والأخوات والبنين : حياكم الله وأحياكم، وأطال أعماركم، وأحسن أعمالكم، وذخراً للأمة أعدَّكم، تُعلُون صروحها، وتضمدون جروحها، وتداوون قرُوحها، وللمِلَّة تسْمُون في سماها، وتحمون حماها، وترمون من رماها .

تحيــة أنفــاس الرياض وشى بهــا
نســيمُ هــدوء والنــواضــر هُـجَّعُ
فجاءت كأن المسك خالط نفحها
لهـا فــي أنــوف الناشقــين تَضُوُّعُ

السماء والسماوة : رمزان لا خفاء .

أيها السُّماة للسماء : السماء رمز الرفعة والسمو والعلاء،

والسماوة رمز الشُّقَّة والسَّموم والهلكة والتيه والبيداء، على حد قول ابن الصحراء :

وجشمها بطن السماوة قائظاً

وقد أوقدت نار السموم الهواجر

فضرباً معي الليلة في بيداء السماوة بحثاً عن مراقي الشمم والإباء، وكشفاً عن أسرار ومعارج ومدارج السمو للسماء، بعون الله رب الأرض والسماء .

بيد أنه قد يطول الحديث . .ذلك أن المريض الذي يئن يأرِزُ إلى تسلية نفسه بالحديث، والطبيب مهما كان بارعاً فإن وصفه علمي، والمريض أدرى منه بمرضه وألَمِه، فلعلي أن أقف بكم على الأسباب، وأرتقي السحاب، وأصفي الحساب، وأميز القشر عن اللباب، بدليل الكتاب، وفعل النبي والأصحاب، وذوي الألباب .

فإن وفَيت فحق ذاك في عنقي

وإن أقصِّر لأنتم أهل إعذار

وشتان بين السماوة والسما !

اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً، وأنت تجعل الحَزْن إذا شئت سهلاً.

• • حقيقة سماوة حاضرنا • •

معشر الإخوة :إن تفكيراً بعمق وحق، وإرجاعاً للبصر والبصيرة كرَّة بعد أخرى في سماوة واقعنا بعد سمو وسماء ماضينا العريق المنير؛ يجعل البصر يرتد خاسئاً وهو حسير، إذ يرى عموم الأمة دون آحادها اليوم في داجية لا صباح لها يتخبطون ﴿ **يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ** ﴾ [التوبة: ١٢٦] لا ينقُلون إلى الأمام قدماً مقبلين إلا رجعوا إلى الوراء أقداماً مدبِرين، أنزلوا أنفسهم من الأمم منزلة الأَمَة من الحرائر؛ عجزت أن تتسامى لعُلاهن، أو تتحلى بحُلاهُن، فحصرت همها في إثارة غيرة حرة على حرة، وتسخير نفسها لخدمة ضرة نكاية في ضرة، أشربوا في قلوبهم الذل . .فرضوا الضيم والمهانة، واستحبوا الحياة الدنيا فرضوا بفتاتها في إسفاف وسفالة، نزل الشرف من قلوبهم بدار غريبة فلم يُقِم، ونزل الهوان من نفوسهم بدار إقامة فلم يضعن ولم يرم، يحسبون كل صيحة عليهم، ويتوهمون كل حركة من عدوهم شبحاً من الموت يهجم عليهم.

فلو أن برغوثاً على ظهر قملة
يكر على الصفين منهم لولَّتِ

اتخذوا الدين قشوراً بلا لباب، وألفاظاً بلا معانٍ، وهيكلاً بلا روح . .عمدوا إلى روحه فأزهقوها بالتعطيل، وإلى وعيده

وزواجره فأرهقوها بالتأويل، وإلى هدايته فموهوها بالتضليل، وإلى وحدته فمزقوها بالطرق والنِّحَل والشيع والتحزب والأباطيل، وإلى البراء من عدو الله فميَّعوه باسم التسامح والتقريب، نصَبوا من الأموات هياكل بها يفتتنون، وحولها يقتتلون، ولأجلها يتعادَون .

كعمل الكفار بالأصنامِ لعب الشيطان بالأحلامِ

ذُهلوا عن أنفسهم، فلم يحفلوا بحاضرهم، ولم يفكروا في مستقبلهم؛ لأنهم زعموا الغيب، والغيب لله، وصدق الله وكذبوا، ما كانت أعمال رسول الله ﷺ للحاضر فحسب، وما غرس شجرة الإسلام ليأكل هو وأصحابه ثمارها، بل زرعها للأولين والآخرين .

ولما بلغت الأمة هذه المرتبة الدنية طوقهم عدوهم بأطواق الحديد، فسامهم العذاب الشديد، وأخرجهم من زمرة الأحرار إلى حظيرة العبيد، فأصبحوا غرباء، في ديارهم تعساء، حظهم من الريادة والسيادة والسعادة الحظ الأوكس، وجزاؤهم فيها الجزاء الأبخس، غطَّاها سحاب الذلة؛ لأنهم أخطئوا طريق العزة، ظنوها في التقدم المادي والتقني فحسب، فذهبوا وراءها :

فإذا السفينة غارقة في أوحالها

ودار ابن لقمان على حالها

نسوا أن سبيلهم للعزة عودتهم إلى الدين، كيف وقد قال رسولهم صلوات الله وسلامه عليه: «إذا تبايعتم بالعينة، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»[١] ففعلوا موجبات ذلهم وخذلانهم:

ما هم بأمة أحمد ... لا والذي فطر السماء
ما هم بأمة خير خلق ... الله بدءاً وانتهاء
إن يزرعوا فحصادهم ... يا حسرتاه كان الهواء
إن يقتلوا فقتيلهم ... كان المودة والإخاء

ولو استرسل المرء مع خواطره لخشي أن يُفضي به التفكير إلى أن ييأس فيضل في بيداء السماوة، فيهلك أو يُجن فيرفع عنه القلم فيستريح، وما كلاهما مريح، وما عانٍ كمستريح:

بي منكِ ما لو غدا بالشمس ما طَلَعَتْ
من الكآبة أو بالبرق ما ومضا

• • سمو ماضينا... وأسرار السمو • •

ولخشية ذلك كله فإني أنقل نفسي وإياكم إلى سماء القرن الأول؛ لنقف على أسرار سموه للسماء لنقول: هذه هي المراقي فارتقِ.. هذا هو النموذج لا غيره والمثال... فصلاحه ضُرِبَت

---

(١) – أخرجه أحمد في مسنده [٤٨١٠] وأبو داود في سننه [٣٤٦٢] عن ابن عمر.

به الأمثال، وقدمت عليه البراهين، وقام غائبه مقام العيان، وخلدته بطون التواريخ، واعترف به الموافق والمخالف، ولَهَج به الراضي والساخط، وسجلته الأرض والسماء، فلو نَطَقَت الأرض لأخبرت أنها لم تشهد مذْ دحاها الله وطحاها وبراها أمةً أصلب على الحق وأهدى به من أول هذه الأمة، ولم تشهد فئةً اتحدت سرائرُها وظواهرُها على الخير مثل أول هذه الأمة، ولم تشهد مذ مهَّدها الله أمةً وحدت الله فاتحدت قواها على الخير قبل هذه الطبقة الأولى من هذه الأمة.

هذه شهادة الأرض تؤديها صامتة، فيكون صمتها أبلغ في الدلالة من نطق جميع الناطقين، ثم يشرح هذه الشهادةَ الواقعُ، ويفسرُها العيان التي لم تحجبه بضعة عشر قرناً من الزمان.

إنها حقائق تاريخية ناطقة ينبغي الوقوف أمامها في كل مكان وزمان.

فقد تنطق الأشياء وهي صوامتٌ

وما كل نطق المخبرين كلامُ

لقد خرجَتْ تلك الدعوة جيلاً في ذلك القرن فريداً مميزاً في تاريخ الإسلام؛ بل في تاريخ البشرية جميعه.. جيلاً فريداً في تصوره.. وشعوره.. وانتمائه.. ووضوحه.. جيلاً اختاره الله لحمل رسالته، ولصحبة رسوله ﷺ.. جيلاً جاءه الوحي

على وعي، فتأسس على توحيد، وانطلق بعقيدة، وسار على منهج صحيح .

حمل فكراً سامياً لغاية أسمى . .زاده التقوى، وشعاره الجهاد، وحصنه الإيمان، وعدته الصبر، وخلقه القرآن، وقدوته سيد الأنام ﷺ .

أمنيته الشهادة في سبيل الله؛ ليكون الدين كله لله، وغايته تلك مع الجنة ورضوان الله، والذي لا إله إلا هو لولا النقل الصحيح المتواتر القطعي لقيل :

ذاك طيف من خيال

بل هو الشيء المحال

قد تقولون :مُحال !

ذاك ضرب من خيال

قد تقولون . .ولكني أقول :

إنها تربية السبع الطوال !. .

لا محال. . .

إنه هدي الكتاب

لا محال . . .

فعلى وقع التلاوات تخضرُّ التلال

لا محال . . .

إنهم جيل المصاحف

لا محال . . .

إنه جيل المحاريب وأساد النبال

إنهم شم الجبال

لا محال . . .

والسؤال :

لِمَ لَمْ تعُد الأمة تخرِّج مثل ذلك الطراز؟ !

أما إنه قد يوجد أفراد وفئة من ذلك الطراز على مدى التاريخ؛ لكنه لا يحدث أن تَجمَّع مثل ذلك العدد الضخم في مكان واحد كما وقع في القرن الأول، هذه ظاهرة واضحة ذات مدلول؛ تستحق أن نقف أمامها لعلنا نهتدي إلى السر، كما يقول سيد[(١)] .

معشر الإخوة :إن قرآن تلك الدعوة في ذلك الجيل لم يزل بين يدينا محفوظاً، وحديث رسول الله ﷺ وهديه العملي وسيرته الكريمة بين أيدينا كذلك، لم يغِب سوى شخص رسول الله ﷺ فهل هذا هو السر؟ !

(١) – يعني الشهيد سيد قطب تـ ١٩٦٧م رحمه الله تعالى صاحب تفسير الظلال.

أما إنه لو كان وجود شخص رسول الله ﷺ حتمياً لقيام هذه الدعوة وإيتائها ثمراتها ما جعلها الله دعوة للعالمين، وما جعلها آخر رسالة لأهل الأرض أجمعين.

إن الله قد تكفل بحفظ الذكر، وبيَّن أن هذه الدعوة يمكن أن تقوم بعد رسول الله ﷺ، وأن تؤتي ثمارها، فاختاره الله سبحانه وتعالى إلى جواره، وأبقى هذا الدين من بعده إلى آخر الزمان؛ وعلى هذا فإن غَيبة شخص رسول الله ﷺ لا تفسر تلك الظاهرة، فما السر إذاً مرة أخرى؟!

هل تغير النبع؟!

هل تغير المنهج الذي تربوا عليه؟!

مهما تقادم جوهر في عتقه

فهو الثمين وليس يبرح جوهرا

إن السر يكمن في أمور:

خذها إليك درة من الدرر

من كاتب راز الأمور وخبر

• • توحيد مصدر التلقي عند الجيل الأول • •

إن الصحابة رضوان الله عليهم جعلوا القرآن والسنة النبع الوحيد الذي منه يستقون وينهلون، وبه يتكيفون، وفي رياضه

يتربون، وعليه يتخرجون، ما نظروا مجرد النظر إلى رواسب الثقافات العالمية التي كانت في ذلك العصر وما قبله، رغم أن بعض هذه الثقافات كانت محيطة بالجزيرة ؛ بل كان بعضها يعيش داخل الجزيرة ، بل لم ينظروا إلى الكتب السماوية السابقة كالتوراة والإنجيل... وغيرهما، وإنما اقتصروا على كتاب الله وحده، فخلُصت نفوسهم لله وحده، واستقام عودهم على منهجه وحده .

مرادهم الإله فلا رياءُ
ونهجهم الكتاب فلا ارتيابُ

ولم يزل رسول الله ﷺ يثبت فيهم هذا القول، ويأطرهم عليه، ويحذرهم من مصادر التلقي الأخرى، وحاله :

فيا قلب اعص كل هوى سواها
ويا نفس سواها لا تطيعي

مصدر التلقي عند عمر بن الخطاب

روى الإمام أحمد في مسنده و الدارمي في سننه - رحمهما الله - عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - : أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى رسول الله ﷺ بنسخة من التوراة، فقال : يا رسول الله! هذه نسخة من التوراة، فسكت النبي ﷺ ، فجعل

عمر يقرأ ووجه رسول الله ﷺ يتمعر ويتغير، فقال أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه : ثكلتك الثواكل يا بن الخطاب ! ألا ترى ما لوجه رسول الله ﷺ ؟! وفي رواية - أن عبد الله بن زيد قال: أمسخ الله عقلك !ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ ؟ !فنظر عمر إلى وجه رسول الله ﷺ ، ثم قال : أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله، رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً، فقال ﷺ : أمُتَهَوِّكون فيها يا بن الخطاب ؟! ألَمْ آتِكم بها بيضاء نقية؟ والذي نفسي بيده !لو بدا لكم موسى فتبعتموه وتركتموني لضللتم سواء السبيل، والله لو كان موسى حياً ما وسعه إلا أن يتبعني»[١] .

لقد كان درساً عظيماً بليغاً للصحابة ومن بعدهم، فحواه :

عُد إلى الروضة إن الغيث يهمي
في روابيها ويكسوها جمالا

• تربية النبي ﷺ للجيل الأول •

لقد كان رسول الله ﷺ يريد أن يربي جيلاً خالص القلب والعقل والتطور والشعور .. خالص التكوين من أي مؤثر غير المنهج الإلهي الذي تضمنه القرآن الكريم، كيف وهو القائل

---

(١) - أخرجه أحمد في مسنده [١٤٧٣٦] والدارمي في سننه [٤٣٥] .

صلوات الله وسلامه عليه: «تركتُ فيكم شيئين لن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله، وسنتي»[١]

ولما اختلطت الينابيع، وشيبت – معشر الإخوة – والتفت الجيل إلى غير ذلك النبع الصافي، انحط وسقط وخار وبار، وصار كالحيوان الأعجم يقع على الجواهر فيدوسها برجله، لا يعلم إلا أنها من جنس ما يُداس؛ لأنها لا تؤكل، فظهرت فئة مزورة لا صلة لها بذلك النبع إلا بما لا كف لها في اسمها ولقبها، فئة ترى أنه لا نجاة للمسلمين إلا بالالتفات عن ذلك، والانغماس في ثقافة الكافر من غير قيد ولا تحفظ..

تعمل لهذا جاهدة، يُسِرُّ المسر منهم كيداً، ويُعْلِن المعلن منهم ذلك وقاحةً.. يتهارشون على وأد ذلك النبع الصافي وتجفيفه، مُجْلِبين بألسنتهم وأقلامهم، أُتْخِموا من تلك الينابيع، ثم شرعوا يتقيئونها في أذهان الجيل؛ بحجة التطوير والرقي والسمو زعموا! تعرف ذلك منهم في لحن القول، وفي مظهر العمل، وفي إدارة الكلام، يتخلل أحدُهم تخلل الباقرة، تعرفهم في اللفتات العامة، تلمحهم في أسباب معيشتهم الشخصية؛ لكنهم يتناقضون ويتهافتون، فيبتدئون من حيث انتهى سادتُهم أصحاب الينابيع المختلطة النتنة.

---

(١) – متفق عليه أخرجه البخاري [١٥١٦] ومسلم [١٢١٨].

سادتهم يرون أن اللعب إنما يحلو بعد الجد، وأن القشور إنما يُلْتَفَت إليها بعد تحصيل اللباب، وأن الكماليات تأتي بعد الضروريات، وأن الوقت رأس مال لا يجوز تبديده في غير ما ينفع؛ لكن هذه الفئة البائسة تفعل عكس ذلك كله، وتختصر الطريق إلى اللهو لتُرْضِي شهواتها، وإلى الكماليات؛ لأن لها بريقاً هو حظ العين، وإن لم يكن للعقل منه شيء.

عصارة رأيهم في علاج حالة المسلمين تُتَرْجم في جملة واحدة هي :أن النجاة في الغرق!

فئة تلبس باسم الإسلام، وتأكل الخبز باسمه؛ لكنها لا تعمل ما يرضيه، ولا تبني ما يعليه.. ترفع العقيرة باسمه فتفضحها رطانة الأنباط، وتربط نفسها معه بمثل خيط العنكبوت فينحل الرباط، فجاءت أفكارهم فاسدة كأنتن من جيفة هدهد ميت كُفِّنَ في جورب مسافر أبخر في شدة القيظ لم يمسه الماء أشهراً، بل أنتن من حلتيت، وأثقل من كبريت، وأهدى إلى الضلال من دليل خِرِّيت.

يجرون الذيول على المخازي
وقد ملئت من الغش الجيوب

انسلخوا من هويتهم، ولم يندمجوا في حضارة سادتهم المادية، فصاروا كالمرأة المعلقة، لا مزوجة ولا مطلقة!

فتَبّاً وسُحقاً وهلاكاً وبُعداً في بيداء السماوة، أجمعوا أمركم ثم ائتوا صفاً، فما أنتم ببالغين من الحق إلا ما يبلغه مَن يريد أن يغطي على الشمس بكُمِّه، وهو لا يعلم أن مِن وراء كمه أرض الله الواسعة.

• • سماوة الجيل الحاضر..ومصدر التلقي • •

معشر الإخوة والبنين :ولما التفتت وسائل التوجيه والتربية في الأمة إلى غير ذلك النبع الصافي ضاعت هويتها، فصارت كمن ينقش شوكة بشوكة، فتنكسر الشوكة التي استخدمت لإزالة تلك الشوكة، فتجتمع شوكة بشوكة – كما قيل – إنك لتسمع من يقول ببلاهة وغباء وبلادة لمن يدعو إلى العودة إلى ذلك النبع الصافي ..إلى الوحي :أنتم خياليون، تعتمدون على الماضي، وتتكلون على الموتى، يستهزئ في معرض النصح، ولا ندري متى صار إبليس مذكراً !!

ومــن الرزيــة عاهــرٌ مُتَوَهَّــم

في الناسكين وناسكٌ في العهــر

يريد أن ننسى ماضينا، حتى إذا استيقظنا من تنويمه لم نجد ماضياً نبني عليه حاضرنا، فاندمجنا في حاضره المرير، خاب وخَسِر وعُرِّي وهُرِّي، وقُطِّع وفُرِّي، وأُحْرِقَ وذُرِّي، تطوع لهذا العملِ أم كُرِّي.

يا هـر لو قال ليث الغـاب قـولكـمُ
لاستنكـف الفـار إن قالـوا له أسـدُ

فقبـح وفدهـم مـن وفد قـوم
ولا لُقُـوا التحـيـة والسلاما

أفرزت هذه لنا جيلاً على درجة من الضعف الخُلُقي والعقلي، يعتقد في قرارة نفسه أنه خلق خلقة الأرنب، وخلق عدوه المفتون به خلقة الأسد، وجف القلم، ولا تبديل لخلق الله :

إذا صـوَّت العصفـور طـار فـؤاده
وليث حديد الناب عند السـرائـد

يبيع دينه بعرض من الدنيا.. طلوع الشمس عنده ليل.. يلعن الشيطان ويتبع خطواته ..

أقوالـه ألفـاظ زور مالهـا معنـى
وصـوت كـالطبـول مجـوفـه
مـا عـنده إلا البـلادة والقمـاءة
والسفـاهة والخـنا والعجـرفـه

ولا عجب !فقد جاءته وسائل التوجيه بالكفن وهو في ثياب العرس، وعرضت عليه النوائح في موكب الفرح، وأرادت علاجه من الفقر فعالجته بالفقر والجهل ومعه الذل، وحاولت علاجه

من الحمى فداوته بالطاعون . قيدته بحديد بعد أن قصت ريشه، ثم قالت له :انشد وغرد وأنى له..؟ !

ما حيـلة العصفـور قصُّـوا ريشـه

ورمـوه فـي قفـص وقالـوا غردِ !

إنمـــا تطـــرب أذن حـــرة

إنمـا يسـعـد قـلـب مطـمئـنْ

معشر الإخوة : ذلك الجيل استقى من النبع الصافي وحده، فكان له في التاريخ ذلك الشأن الفريد.. إنه السماء .

وهذا الجيل استقى من ينابيع مختلطة آسنة، فهلك في بيداء السماوة، وكلٌّ يجني عواقب ما زرع .

وشتان ما بين السماء والسماوة !

هذه هي الحقيقة، فلا تلبسها ثوب زور، فلا أبطل من الباطل إلا السكوت عليه .

صـرح أبن فالخيـر في التصـريحِ

قـد تبـرأ العـلة بالتشـريـحِ

• • العمل بالكتاب والسنة عند الجيل الأول • •

ثانياً : أن ذلكم الجيل قد جعل القرآن الكريم والسنة منهج تلقٍ للتنفيذ والعمل والتطبيق، لا منهج دراسة ومتعة، كما هو حال كثير من الأجيال التي خلفت ذلك الجيل الفريد .

ومـا السـيف من غيـر أبـطـاله !

وما العـين مــن غـيــر إنســانها !

إن أولئك لم يكونوا يقرءون القرآن لقصد الثقافة والاطلاع وزيادة الحصيلة الفقهية فحسب !بل كان الواحد منهم يتلقى القرآن ليتلقى أمر الله في خاصة شأنه وشأن المجتمع الذي يعيش فيه وشأن الحياة التي يحياها ..يتلقى ذلك كله ليعمل به فور سماعه وحاله :

أنـا بالله عـزيــــز لا بـعــزى أو مـنــاة

معــي القــرآن أتلـــوه فيحيـي لي مـواتـي

استبانت غايتي منــ ـــآية فـي الذاريـات

فتح هذا الشعورُ لهم من القرآن آفاقاً لم تكن لتُفْتَح لهم بغيره، ويسر لهم العمل، وخفف عنهم ثقل الأعباء والتكاليف، حوَّل مسار حياتهم إلى الاتجاه الصحيح، فحالهم :

دوى القــران أيا نـفـوس فأوبِّـي

شـوقًا إلـى خُضُر الجنـان وردِدي

ولو أنهم قصدوا القرآن بشعور البحث والدراسة والاطلاع والثقافة ما كان لهم ما كان :

إن المخالب فـي يدَي لـيث الوغـى

قـضب وفـي يد غـيـره أظـفـارُ

• • تطبيق الكتاب والسنة عند السعدين • •

لما تحزب الأحزاب على رسول الله ﷺ والمسلمين، أراد رسول الله ﷺ أن يصالح قادة المشركين على ثلث ثمار المدينة ويرجعوا، كل ذلك رفقاً بأصحابه، فاستشار السعدَين رضي الله عنهما، فقالا في غاية الاستسلام لله، والأدب مع رسول الله ﷺ : «يا رسول الله!أ أمر أمرك الله لا بد من العمل به فسمعاً وطاعة لله؟ أم أمر تحبه يا رسول الله !فما تحبه مقدم على كل شيء؟ أم شيء تصنعه لنا؟ قال : بل شيء أصنعه لكم؛ لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله !لقد كنا وهؤلاء على الشرك بالله، والله ما يطمعون ثمرة من ثمار المدينة إلا قِرَىً أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وأعزنا به وبك نعطيهم أموالنا؟! والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين»[١] .. ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب : ٢٢] .

هذا البيان فقل لـمـن قد ضل دون نقيضه
صمتاً فذا أسد الكلام فما طنينُ بعوضه !

---

(١) - زاد المعاد [٣ / ٢٤٠] .

• العمل بالكتاب والسنة عند الصديق •

وها هو الصدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه يقول : لست تاركاً شيئاً كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به، إني أخشى إن تركت من أمره شيئًا أن أزيغ ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [النور: ٦٣] .

إنه الصدِّيق اتخذ الله معبوده، ورسول الله ﷺ دليله وإمامه، فرجح إيمانه .

فحفت به العلياء من كل جانب
كما حف أرجاء العيون المحاجرُ

لما أشار بعض المسلمين على أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بألا يبعث جيش أسامة لاحتياجه إليه، قال : والله لو أن الطير تخطفني، وأن السباع من حول المدينة ، وأن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين؛ ما رددت جيشاً وجهه رسول الله ﷺ ، ولا حللتُ لواءً عقده رسول الله ﷺ ، والله لو لم يبقَ في القُرَى غيري لأنفذته، أفأطيعه حياً وأعصيه ميتاً !فأنفذه .

فانقاد كُرهاً من أبى واستكبرا

ثم أعلنها حرباً على المرتدين، فقيل له : إنهم يقولون : لا إله إلا الله، قال : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، والله

لو منعوني عَناقاً أو عِقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه" فنصر الله به دين الله :

قاد السفين بجرأة ومهارة
كالطود نحو مسيرة لا تُهْزَمُ
وارتدت العرب الغلاظ فأشفقتْ
همم الرجال فصاح : هل مَن يفهمُ؟
والله لو منعوا عقال نويقة
أدَّوه نحو المصطفى لن يَسلَموا
ومضى أبو بكر لغايته إلى
أن أخضع المرتد وهو مرغمُ
هذا هو الإسلام في عليائه
مُثُلٌ وأعلامٌ ودينٌ قَيِّمُ

ذاق طعم الإيمان مَن رضي بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولاً، وتلك سهلة بالدعوى واللسان؛ لكنها صعبة عند التحقيق والامتحان .

الرضا - معشر الإخوة - : كمال الانقياد والاستسلام لأوامر الله ونواهيه، ولو خالف المرء شيخه وطائفته ومذهبه وهوى نفسه .

مستمسكاً بعرى العقيدة تابعاً
ولغير شرع الله لا يستسلمُ

لا يوقف تنفيذ قول الأوامر على قول شيخه أو طائفته؛ فإن أذنوا نفذ وقَبِل وإلا أعرض ولم ينفذ، وفوض الأمر لهم، والله لأن يلقى العبد ربه بكل ذنب خلا الشرك خير له من أن يلقاه بهذه الحال. كما قال ابن القيم رحمه الله.

والحق مثل الشمس يجمل ضوؤه
للمبصرين ولا يروق لأرمدِ

ووالله ما الأبصار تنفع أهلَها إذا لم يكن للمبصرين بصائرُ

معشر الإخوة: ذلك الجيل أسلم واستسلم وانقاد لحكم الله بلا خيار: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]

وبلا تنطع في البحث عن الحكمة والعلة؛ لأن ذلك ينافي التسليم والانقياد ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وبلا حرج في النفس عند تطبيق النص الشرعي: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]

شعارهم : (بِمَ أمر ربنا؟) لا (لِمَ أمر ربنا؟) فكانوا السماء، فاسلك طريقهم، فلئن سلكتَها لقد سبقت سبقًا بعيدًا إلى السمو والسماء، ولئن أخذت يمينا أو شمالاً لقد ضللت ضلالاً بعيداً، وهلكت في البيداء، وشتان ما بين السماوة والسماء!

تقول عائشة - رضي الله عنها - فيما رواه أبو داود رحمه الله : إن لنساء قريش فضلاً، وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار، ولا أشد تصديقاً لكتاب الله، ولا إيماناً بالتنزيل منهن، لما نزل قول الله : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١] انقلب رجالُهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله فما منهن امرأة إلا قامت إلى مُرْطها فاعتجرت به وغطَّت رأسها؛ تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتاب [١] .

فمن لم يكن حسنها في الحجاب
سخريةٌ عَدُّها في الحسانِ
يا رُب أنثى لها دين لها أدبٌ
فاقت رجالاً بلا عزم ولا أدبِ

ويختلط الرجال والنساء في الطرق عند الخروج من المسجد، فيقول ﷺ كما ثبت في سنن أبي داوُد : «استأخرن . عليكن

(١) - أخرجه أبو داود في سننه [٤١٠٢] وهو عند البخاري بنحوه [٤٧٥٩] .

بِحافَات الطريق»(١) فكانت المرأة تلتصق بالجدار حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار من شدة لصوقها به .

معشر الإِخوة والأخوات : هذه شامة تهدى لمن بهرتهم مدنية الغرب، فصنعت لهم الصنم، وألهتم عن جلال الحرم، فلم يبق عندهم قيس يحن لليلى بين الشعاب، بل صار يتمنى أن يراها بلا حجاب، بل يشهد جمالها عارية بلا ثياب، لتصبح وتمسي في تباب، واشتبهت عندها الحمائم والصقور، والغراب بالقراب، و اليافع بالكعاب .

كأنه زَبَدٌ والبحر يقذفه
والشط يأنفه والحل والحرمُ

إنها – يا فتاة الإسلام – ليست مسألة حجاب فقط، إنها عقيدة وشريعة.. إنها استسلام وتعظيم وحب لله.. إنها مسألة واحدة: أن تكوني أو لا تكوني .

هو الخبر اليقين وما سواه
أحاديث المنى والترهات

• • تطبيق السنة عند ابن رواحة • •

يُقبل عبد الله بن رواحة رضي الله عنه إلى المسجد، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب، فسمعه يوجه الأمر للواقفين : «اجلسوا، فجلس

(١) – أخرجه أبو داود في سننه [٥٢٧٢٦] .

مكانه خارج المسجد، مستسلمًا لأمر رسول الله ﷺ وهو لا يعلم حكمة ذلك الأمر، حتى فرغ النبي ﷺ من خُطبته وعلم بذلك، فقال : زادك الله حرصًا على طواعية الله ورسوله»(١) .

إن للإيمـــان نـاس كـالأسُدْ

تشبـــه إن مـن يـؤمـنْ يَسُـدْ

لما وُجِّه النبي ﷺ إلى الكعبة، صلى معه العصر رجلٌ، ثم مر على قوم من الأنصار يصلون إلى بيت المقدس ، فقال : «أشهد أني صليت مع رسول الله ﷺ ، وقد وُجِّه نحو الكعبة» وهم ركوعٌ فانحرفوا، ما راجعوا وما ترددوا، وما رءوسهم رفعوا حتى امتثلوا،(٢) على مثلهم ينطبق قول الله : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١]

ومــا يستـوي الفتْن فـيــه الغـبار

وإن أشبـه الكـحـــل الأكــحـلُ

---

(١) – رواه الطبراني في الأوسط [٩١٢٨] وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد [١٥٧٥١] وقال: وفيه إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع وهو ضعيف .

(٢) – أخرجه البخاري [٤١] ومسلم [٥٢٥] .

• • أبو طلحة وتطبيقه لكتاب الله • •

وفي صحيح البخاري : أنه لما نزل قول الله : ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] قام أبو طلحة رضي الله عنه، فقال : يا رسول الله !إن أحب أموالي إلي بيرحاء ، وإنها صدقة أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها حيث أراك الله يا رسول الله، فقال ﷺ : «بخٍ بخٍ ..ذاك مال رابح ..ذاك مال رابح ! قد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين، فقال : أفعل يا رسول الله»(١) وحاله :

نفسي الفداء ثم أمي وأبي
لصاحب المعراج أحمد النبي

تعودوا هاك، ولم يتعودوا هات، ولكل امرئ ما تعود .

عزفت أنفسهم عن قول : لا
فهي لا تعرف إلا هي لك

يا حي يا قيوم فاجمعنا بهم
في الخلد إنا لم تحد عن حبهم

في أواخر حياته عكف على القرآن، وبينما هو يقرأ في (براءة) قول الله : ﴿انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ

(١) - أخرجه البخاري [١٤٦١] ومسلم [٩٩٨] .

وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١] قال لأبنائه : جهزوني !قالوا :نحن نغزو عنك قد عذرك الله، قال : أي بني! والله ما أرى إلا أن الله استنفرنا شيوخاً وشباناً .. فجهزوني .

يشبه الرعدَ إذا الرعدُ رجفْ
يشبه البرقَ إذا البرقُ خطفْ

جهزوه وغزا في البحر ومات فيه، فلم يجدوا له جزيرة ليدفنوه فيها إلا بعد سبعة أيام أو تسعة، لم يتغير رضي الله عنه وأرضاه .

لو كان هذا الدهر شخصاً ناطقاً
أثنى عليه بنشره وقصيدهِ
أو كان ليلاً كان ليلة قدر
أو كان يوماً كان يومي عيدهِ

إيه إيه !

علِّم القوم نهوضاً للسما
فشعار القوم كل واشرب ونَمْ

إنما هو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وما سواهما حُلُم .

يا مفني العمر في التفتيش عن حلم
لو كان يُدرِكُ ما كان اسمه الحلما

معشر الإخوة !خير الناس ذلك القرن الذي بعث فيه رسول الله ﷺ، ثم الذين يلونهم.

هـم الرجـال وقد جـاءوا علـى قـدر
هـم الذيـن إذا ما عـاهـدوا صدقـوا

• تطبيق السنة عند الشافعي وأحمد •

سأل الإمامَ الشافعي وهو بمصر رجلٌ عن مسألة، فأفتاه بقول النبي ﷺ، قال له :قال رسول الله ﷺ كذا، فقال الرجل :أتقول بهذا؟ فارتَعَدَ الإمام الشافعي ، واصفر لونه، وقال :أرأيت في وسطي زناراً؟ !أرأيتني خرجت من كنيسة؟ !ويحك !أيُّ أرض تقلني، وأي سماء تظلني إن رويت عن رسول الله ﷺ شيئاً لم أقل به؟ !نعم !أقول به وعلى الرأس والعينين، متى رويت عن رسول الله ﷺ حديثاً ولم آخذ به، فأشهدكم – أيها الناس – أن عقلي قد ذهب ...حاله: والله يميناً براً ..لو تبرجت الآراء في بقللها، وتطامنت لي الجبال بقللها، لتفتنني عن اتباع محمد ﷺ إلى رأي غيره لما رأيت لي عنه عديلاً، ولا اتخذت به بديلاً .

إذا رأيتَ الـهـوى فـي أمـه حكمـا
فحكـم هـنالك أن العقـل قد ذهـبا

* أخي :

وما أحـــذو لك الأمـــثال إلا
لتحذو وإن حذوت على مثالـي

يختفي شيخ أهل السنة وإمام هذه الأمة أحمد بن حنبل – عليه رحمة الله – في المحنة عند ابن هانئ ثلاثة أيام – أيام الواثق – ثم قال لابن هانئ بعد ثلاثة أيام : اطلب لي موضعاً حتى أتحول إليه، فقال ابن هانئ : لا آمن عليك يا أبا عبد الله ، قال :افعل إن فعلت أفَدْتُك، قال ابن هانئ : فطلبت له موضعاً، فلما خرج قلت له : الفائدة يا إمام، قال : لقد اختفى رسول الله ﷺ في الغار ثلاثة أيام ثم تحول، وليس ينبغي أن يتبع رسول الله ﷺ في الرخاء ويترك في الشدة :

فيرحـم الرحـمـن ذلك العلم
الزاهـد العـابد قـمة القـمـمْ
وفارس المعـقـول والمنـقـولِ
المقتـفـي لسـنـة الرسـولِ
ونشهـد الله عـلـى محبـتـه
جمعـنـا الله مـعـاً فـي جـنته

هذا هو النهج الذي سما بأولئك.. إنه التلقي للتنفيذ والعمل

• • تطبيقُ الوحي عند الأجيال المتأخرة • •

ولما أخذت الأجيال المتأخرة الوحي للدارسة والمتعة خرج لنا هذا الجيل الهالك في بيداء السماوة في مجمله :

لكل جماعة فيهم إمامٌ
ولكن الجميع بلا إمامِ
ليسوا بأحياء ولكنهم
تسمعُ من أفواههم أحرفُ

وشتان ما بين السماوة والسما !

أيها الجيل :ليس بعد نبينا نبي، ولا بعد كتابنا كتاب، ولا بعد أمتنا أمة، الحلال بيِّن، والحرام بيِّن، لقد مات رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا وذكر لنا منه علماً ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤] فاقصد البحر وخلِّ القنوات .

وإذا أتى نهر الله بطل نهر معقِلِ ..
وفي طلعة الشمس ما يغنيك عن زُحَلِ

فاستذكرنْ آثارك الخوالدا
ومجدك الفذ الصريح التالدا
واقتبس الأصول منه والسننْ
ولتسمون بها الهضاب والقُننْ

وكـن أخـي فـي الرأي والإعـدادِ
مـن عصـبـة الزبيـر والمقـدادِ

وشتان ما بين السماوة والسما!..

• • صدق التميز والمفاصلة مع الكفر وأهله عند الجيل الأول • •

فإن عبودية الله لا تسمح بموالاة أي عدو لله: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

لقد تميز جيل الصحابة - رضي الله عنهم - عن المجتمع الجاهلي تميزاً واضحاً في كل شيء؛ ظاهراً وباطناً كما يقول سيد.

لقد كان الرجل حين يدخل في الإسلام يخلع على عتبته كل ماضيه في الجاهلية، ويبدأ عهداً جديداً منفصلاً كل الانفصال عن حياته الجاهلية، ويقف من كل ما عهده في جاهليته موقف الحذِر المتخوف الهائب المستريب.

متيقـظـاً فـي كـل جارحـة لهم
خصـوصـة قلـبٌ وعينٌ تنـظـرُ

قد عاش عزلة شعورية كاملة بين ماضيه في جاهليته وغوايته، وحاضره في إسلامه وهدايته ..عزلة شعورية في صِلاته وروابطه الاجتماعية، حتى وهو يتعامل معهم في عالم التجارة اليومي ..انخلاع من البيئة الجاهلية وعرفها وتصوراتها، وعاداتها وتقاليدها، وانضمامه إلى المجتمع الإسلامي في ولائه وطاعته وتبعيته، في تخفف وانسلاخ من ضغط العادة والتقليد والتصور والقيم السائدة البائدة، فكان ذلك الجيل المتميز، حاله :

من كان منا فإنا منه ومن شذ رُدًّا
ليس الفتى من تواري إن الفتى من تصدَّى
ومن تسربل عزاً لم يستر الذل بُرْدا

• • مفاصلة عمر الفاروق للكفر وأهله • •

لما أسلم عمر رضي الله عنه وأرضاه قال المشركون : صبأت، فقال عمر : كذبتم !ولكني أسلمت وصدَّقت، فثاروا إليه، فما زال يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رءوسهم، وأعيى من التعب فقعد، فقاموا على رأسه وهو يقول : افعلوا ما بدا لكم! أحلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة لقد تركناها لكم أو تركتموها لناَّ ، وحاله : ﴿ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ ﴾

[هود: ٥٤-٥٥]

لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم
وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا

الله يعلم أنا لا نحبكم
ولا نلومكم ألا تحبونا

كلٌ له نية في بغض صاحبه
بالله نبغضكم دوماً وتقلونا

الله أكبر !ما كان بين إسلامه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبين أن قاتلهم وقاتلوه، وقال : افعلوا ما بدا لكمٌ إلا سويعات عديدة، وحاله :

إذا كان قلبي لا يغار لدينه
ما هو لي قلب ولا أنا صاحبه

إنه التميز والمفاصلة الحاسمة مع الباطل وأهله، ورفض الالتقاء في منتصف الطريق .

إنه الفاروق الذي جاءه أبو سفيان من أشراف قومه ليشفع له عند رسول الله ﷺ في شد عقد الحديبية ، فقال له ببراء من أعداء الله – عزّ وجلّ –: أنا أشفع لكم؟! والله الذي لا إله إلا هو لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم بهٌ حاله :كان العيش معهم والشفاعة لهم ممكنة .

ولكنهم ركبوا مسلكًا
يحيد عن الجسد المشرقِ
وقد ولي الأمر منهم رجال
يخالف منطقهم منطقي
نأوا عن هدى الله في نهجهم
وساروا وسرتُ فلم نلتقِ

إنه على بصيرة من دينه . .واثق بمنهجه . . موقن برسالته . . لو شك الناس – جميعًا – في الحق ما شك فيه؛ لأنه يفترض أنه خلق وحده، وكلف بالحق وحده، وسيحاسب عليه وحده.

وعلى مقادير الرجال فعالهم قطع المهند تابعٌ لحديدهِ .

• • ثمامة بن أثال ومفاصلته للكفر وأهله • •

أخرج الشيخان – رضي الله عنهما – أن ثمامة سيد أهل اليمامة وقع في الأسر ورُبط في سارية في مسجد رسول الله ﷺ، فأحسن النبي ﷺ إساره، ثم قال : أطلقوا ثمامة ، فرغب في الإسلام، وتغيرت الصورة القاتمة التي كان يحملها عن الإسلام إلى صورة مشرقة استنارت بها بصيرته، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل، ثم دخل المسجد وشهد الشهادتين، ثم قال :يا رسول الله! والله ما كان على وجه الأرض وجه ولا

دين ولا بلد أبغض عندي من وجهك ودينك وبلدك، فقد أصبحت أحب الوجوه كلها، والدين كله، والبلاد كلها إلي، يا رسول الله! إن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فما ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر» (١) .

انجلت الرغوة عن اللبن الصريح.. ولا يصح إلا الصحيح، محيت ألوان الغشاوة التي كانت مهيمنة على قلبه، فأعلن بدء تاريخ جديد يمحو به آثار ما سلف، ويتميز به ويفاصل في عزة وأنف .

رُوي أنه قدم مكة فلبى، فأخذته قريش، وقالوا : لقد اجترأت علينا.. والله لولا ما بيننا وبينك لقتلناك، أصبوت؟ !قال :ما صبوت ولكني أسلمت لله، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ. حاله :

ولقد وجدت ولاء قوم سُبةً

فاجعل ولاءك للعزيز الأكرم

لم يكن بائع كلام، ولا مكثر أوهام، قام بتنفيذ التهديد، ومنع عنهم الحنطة حتى اضطروا خاضعين إلى أن يكتبوا لرسول الله ﷺ؛ متوسلين قائلين : إنك تأمر بصلة الرحم، وقد قطعت أرحامنا.. قتلت آباءنا بالسيف وأبناءنا بالجوع فكتب له رسول

(١) — متفق عليه أخرجه البخاري [٤٦٢] ومسلم [١٧٦٤] .

الله ﷺ أن يسمح لهم بحمل الحنطة إلى مكة ، فامتثل وفعل، كيف ورسول الله قد أمر .

ولو تقطــع جــذع عن مــنابتهم
أتت على غصنها تلك العــناقيــدُ

مفاصلة حاسمة، وفكر نزيه، وتميز صريح، وهدىً صحيح، خاب من قال فلم يفعل، فما يفلح القائل حتى يفعل .

إنه التميز الذي جعل من ذلك الشاعر الذي كان يستعدي على المسلمين، ويسمهم بالسفه وسوء الاختيار قبل إسلامه، يستعلي على تلك الكلمات والموروثات التي كان يفاخر بها؛ قيل له بعد إسلامه : أنشدنا من شعرك؟ فقال :لقد أبدلني الله من الشعر الزهراوين :البقرة وآل عمران، لا أستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ تميز محسوس، وتحول ملموس، ولا يكابر في المحسوس إلا ممسوس . .

قــد فاتــه أن الهــداية بلمــسٌ
ومذاق طعم الشهــد لن يتغــيرا

• التميز والمفاصلة عند الجيل الحاضر •

معشر الإخوة! ولما حاد هذا الجيل عن تلك المفاصلة والعزلة، والتميز والترفع على مبادئ ومظاهر الجاهلية، تلوث

وتأثر بقدر حيدته عن ذلك النهج، فمستقل ومستكثر، فلو نظرت إلى مدن الجيل وقراه من مرقب عال، وسَبَرت حاله في مجمله؛ لم تميز بينه وبين مجتمع المغضوب عليهم والضالين إلا في بعض المظاهر والشعارات والآثار واللوحات ..لهث وراء المادة في غير اقتصاد ..اكتساب من غير احتساب ..سهر في غير طاعة ..عمل بغير نية ..تجارة في لهو عن ذكر الله ..ولاء لعدو الله ..حرفة في جهل بدين الله ..وظيفة في الإخلاص لغير الله ..أحكام في مشاقة الله ..شغلٌ في ضلالة ..قعود في بطالة ..حياة في غفلة وجهالة وشتات وفرقة .أمة لمن تتميز .

فهي والأحداث تستهدفها — تعشق اللهو وتهوى الطربا

أمـة قد فت في ساعدها — بغضُها الأهلَ وحبُّ الغُربَا

أمـتي من بـعد طـول — النـوم صارت غفـلويـه

صـدَّقت كـل خـداعٍ — مـن غـوي وغـويـة

واستكانت لخداع الذئب — مـن غيـر رويـه

نزلت من حصنهـا العالي — إلـى أرض دنـيـه

لتـرى مـا لـدى النـاح — مـن دنيـا هنيـه

ثم جـاء الذئب فانقض — بـأنيـاب قـويـة

كـيف ينقـض عليهـا؟ — كيـف يرميـها ضحيـه؟

وكـتـاب الله يهـديهـا ألا هـيـا إلَيَّـه

كـيف تمسـي بخبيث المكـر لقمـات هنيه

فـرأى تقسيم أوصالٍ لهـا فـي الجـاهـليـه

ورمـى أقـوامهـا الكُـثْر بـداء الـفـوضـويـه

وبـأفكـار زيُـوفٍ مـحـدثات زخرفيـه

بقي الحصـن ولا حـراس يحـمـون الرعـيـه

ضحك الباغـي عليهـا بأخـاديـع ذكـيـه

فاستـجابـت بغباء عمل الشـاة الضحيـه

ساقهـا الجـزار للذبـح إلـى أرض قـصـيـه

وقف الباغي ينادي القـوم هـل ثـم بقـيـه؟

سوف لا أتـركـكـم إلا شـقـيًّا أو شـقـيـه

هـذه روح القـضـيـة هل سنـصحـوا للبليه؟

بِمَ نصحو؟

بكـتـاب الله والسـنـة والأيـدي الـقـويـه

بـولاءٍ وبـراءٍ ومـبـادٍ عـقـديـه

وجيوش تـهـزم الباغـي وتسـقـيـه المنيـه

وعلى هذا ! فلن تستقيم قيم الإسلام إلا بتميز ومفاصلة وبراءة، واستعلاء على القيم المنحرفة واعتزال لها، وعدم تعديل قيمنا وتصوراتنا لتلتقي معها على أي حال كان، وما يلقّاها إلا الصابرون . . .

إنه الوقوف والصمود بوجه المجتمع المخالف، والمنطق السائد، والأفكار والتصورات، والانحرافات والنزوات، والواقف قد يشعر بالوهن ما لم يأوِ إلى ربه ومولاه . .

واللهُ لن يترك المؤمن وحيداً حين يعلم صدقه يواجه الضغط، وينوء بالثقل، ويهزه الوهن : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ [محمد: ١١] .

إن أعداء الله ومبادئهم كذوات السموم؛ نحن معها على افتراق وبراء وعداء حتى يدخلوا في ديننا .

هل لمحتم طيبة من حيةٍ؟!

أو لمستم رقة من عقربٍ؟!

إنَّا حين نسايرها ولو خطوة واحدة فإنا نفقد الطريق إلى العلياء، ونتيه في بيداء السماوة أذلاء، وحين نتميز ونفاصل ولا نلتقي إلا على نبع الوحي الصافي نكون بحق أجلاء الرفعة والعلاء، وأهل العطاء والسمو للسماء .

وشتان ما بين السماوة والسما!..

• • معرفة المنهج الصحيح لمنزلة الدنيا من الآخرة عند الجيل الأول • •

علموا أن لذة الآخرة أعظم وأدوم وألَمها كذلك، ولذة الدنيا أصغر وأحقر وألَمَها كذلك، فتركوا أدنى اللذتين لتحصيل أعلاهما، واحتملوا أيسر الألمين لدفع أعلاهما.. حسموا في قلوبهم كل أرجحة ولجلجة بين قيم الدنيا والآخرة.. خلّصوا قلوبهم من وشيجة غريبة تحول بينهم وبين التجرد لله، والخلوص له وحده دون ما سواه، وحال أحدهم:

بما في فؤادي يبوح الفمُ ويجهل غير الذي أعلمُ

• • حقيقة الدنيا عند رسول الله ﷺ • •

نساء رسول الله ﷺ هن من البشر، ولهن مشاعر البشر على فضلهن وكرامتهن وقربهن من ينابيع النبوة.. لما رأين السعة والرخاء بما أفاء الله على رسوله وعلى المؤمنين؛ راجعن رسول الله ﷺ في أمر النفقة، فلم يستقبل هذا الأمر بالرضا؛ لأنه كان يريد أن تظل حياته وحياة من يتصلون به على أفق سامٍ وضيء، مبرئاً من كل ظل للدنيا وأوشابها، لا لحرمة السعة؛ ولكن للاستعلاء على جواذب الأرض الرخيصة.

يشقى الحريص أبداً بحرص

لو شرب الأنهار طرا ما ارتوى

لو ابتنى فوق الثريا سكناً

هوى به الحرص إلى جوف الثرى

احتجب رسول الله ﷺ، وقالوا :طلق نساءه حين اعتزلهن، وأنزل الله آية التخيير، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٨-٢٩]

بدأ صلوات الله وسلامه عليه بأحب نسائه إليه عائشة ليُعْلَم أن محبة الله فوق كل محبة، فتلا عليها الآية، وقال ﷺ : «لا تعجلي حتى تستأمري أبويك، فقالت: أفيك أستأمر أبوي يا رسول الله؟! بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة»[١] فما عرض على امرأة غيرها من نسائه إلا اختارت الله ورسوله والدار الآخرة .

تالله ما عقل امرؤٌ قد باع ما يبقى بما هو مضمحل فان ليس من يجعل العقيدة نهجاً كالذي ينتمي إليها شعارا هذا هو الميزان الدقيق في نفوس الأصحاب، استمدوه من كتاب الله

---

(١) - متفق عليه أخرجه البخاري [٤٧٨٦] ومسلم [١٤٧٥] .

وهدى رسول الله ﷺ ، وعاشوه في واقع حياتهم، فحُقَّ لهم أن يسودوا ويقودوا .

فيوماً على نجد وغارات أهله
ويوماً بأرض ذات شَت وعرعرٍ

صح عند مسلم عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مر بالسوق والناس حوله، فوجد جدياً أسك ميتاً، فتناوله بأصل أذنه، ثم قال : « أيكم يحب أن يكون له هذا بدرهم؟ فقالوا : يا رسول الله !ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ والله لو كان حياً لكان عيباً فيه أنه أسك فكيف وهو ميت؟ !فقال ﷺ : فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم »(١) .

هكذا يا معشر الإخوة !رباهم رسول الله ﷺ على الزهد في الدنيا والرغبة في الأخرى، فتركهم من بعده جبالاً شُمَّاً، كلٌّ يسير مفرداً كأمة .

هادر كالأسد الزائر مرغٍ مزبدُ
لهب ملتهم محتدم متقدُ

والله لأن تؤخذ المدية، فتوضع في حلق أحدهم لتنفذ من الجانب الآخر؛ أهون عنده من أن تكون الدنيا مقدَّمة على الآخرة، وهي عند الله أهون من جناح بعوضة. وحاله :

(١) - أخرجه مسلم [٢٩٥٧] وأبو داود [١٨٦] .

لا أشرئب إلى ما لـم يكـن طمعـاً
ولا أبيت على مـا فات حسـرانـا
ليس الوقـوف على الأبواب خلقـي
ولا التمسح بالأعـتاب من عملـي

• • أبو عقيل الأنصاري وإيثاره الآخرة على الدنيا • •

لما كان يوم اليمامة، واصطف الناس، وبدأ القتال، رُمِي أبو عقيل الأنصاري رضي الله عنه بسهم فوقع بين منكبه وفؤاده في غير مقتل، فأُخْرِج السهم ووهن له شقه الأيسر، وجُرَّ إلى الرَّحْل، ولما حمي القتال وانهزم المسلمون في أول المعركة، وهو واهن من جرحه، سمع معن بن عدي يصيح : يا للأنصار، الله.. الله.. والكرة على عدوكم، يقول ابن عمر – رضي الله عنهما – : فنهض أبو عقيل يريد قومه، فقلت: ما تريد .. ما فيك قتال؟! قال: قد نوَّه المنادي باسمي يا ابن عمر ، فقال ابن عمر : إنما يقول :يا للأنصار! ولا يعني : الجرحى، فقال أبو عقيل : لقد نوَّه المنادي باسمي وأنا من الأنصار، ولا والله الذي لا إله إلا هو لأجيبنه ولو حبواً .

إن الطيور وإن قصصت جناحهاتسمو بفطرتها إلى الطيرانِ

يقول ابن عمر : فتحزم أبو عقيل وأخذ السيف باليمنى، ثم جعل ينادي :يا للأنصار !كرة كيوم حنين .. كرة كيوم حنين، يا خيل الله اثبتي، وبالجنة أبشري .

يتقدم الصفوف محرضاً والحرب
تقذف تياراً بتيارِ
كالماء أعذب ما يكون وإنها
لأشد ما يصبو على النيرانِ

يقول ابن عمر: فنظرت إليه وقد قطعت يده المجروحة من المنكب ووقعت على الأرض، وبه من الجراح أربعة عشر جرحاً كلها خلصت إلى مقتل، وهو صريع في آخر رمق، وقد هزم الله عدوه ونصر جنده، فوقفتُ عليه، وقلت :أبا عقيل فقال بلسان ملتاث :لبيك !المن العاقبة؟ قلت :أبشر قد قُتِل عدو الله، فرفع إصبعه إلى السماء يحمد الله، ثم لقي الله .

صامتاً ليس يطيل الكَلِمَا
وهو بالصمت يربي الأمما
فلولا احتقار الأسد شبهتها به
ولكنها معدودة في البهائمِ
ما كان للزهرات لولا أنها
هتكت حجاب الكم أن تتوردا
قد قيدوك فما أطقت قيودهم
والحر يأبى أن يعيش مقيدا

علم أن الدنيا بأسرها قليلة، وبقاءها من أولها إلى آخرها قليل، ونصيبه من هذا القليل قليل، ورأى غيره يبذل روحه ليظفر بقدر قليل من هذا القليل في بقاء قليل، فبذل أعز ما يبذله . .نفسَه، وحالُه : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ [طه: ٨٤]

لم يدخـر نفسـاً ولا مـالاً وقـد

باعـهـمـا لله والله اشـتـرى

ما ضره ما أصابه يوم يجبر الله مصيبته بالجنة بمنِّه !

فبـعـد هـذا الـظـل يـا

بلـبـل مـاء وهـوا

وجنـة أخـرى يطـيـب

فـي ريـاضـهـا الحيـا

بهذه الموازين خرجوا من الجزيرة ليبلغوا رسالة الله، وليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام – على حد قول ربعي رضي الله عنه فواجَهوا حضارات مادية رقت حواشيها، وطالت ذيولها، وبلغت في البذخ درجة الخيال .

كان أحدهم إذا انتطق بمنطقة قيمتها دون مائة ألف درهم يعير ويزدرى ويحتقر، وتتفاداه العيون، ويتوارى من القوم، كما يقول الندوي .

واجه الصحابة هذا كله فركلوه بأقدامهم، ما هو عندهم بشيء، إذْ هم في سجن الدنيا لما ينتظرونه عند الله من الكرامة، رأوا خبزاً رقاقاً لم يروا مثله في الرقة، فحسبوه مناديلاً، فأخذوه في أيديهم فإذا هي أرغفة، ما كانوا يظنون أن الخبز يكون في هذه الدرجة من الرقة والأناقة .

لا يشتهي أحدهم ما لا يجد، وإذا وجده لا يجعله غاية الجد والكد، يتسامون على المظاهر الجوفاء، ويترفعون عن الأخلاق الشوهاء، واعتزازهم بالله رب الأرض والسماء .

ركبوا العزائم واعتلوا بظهورها
وسروا فما حنوا إلى نعمان
ساروا رويداً ثم جاءوا أولاً
سير الدليل يؤم بالركبان

• • حقارة الدنيا عند عبادة بن الصامت • •

معشر الإخوة : إليكم صورة للمواجهة بين أهل الدنيا وأهل الآخرة؛ حُسمت فيها النتيجة لحزب الله أهل الآخرة قبل المواجهة المسلحة .

فلكل راضٍ بالهوان قرارة
يحتلها ولكل راق سُلَّمُ

لما وصل عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى مصر، بعث إلى المقوقس حاكم مصر عشرة رجال على رأسهم عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وجعله متكلم الوفد، وكان عبادة شديد السواد، مفرط الطول مهاباً، فلما دخلت رسل المسلمين على المقوقس هابهم، وقال: نحوا عني ذلك الأسود وقدموا غيره ليكلمني، فقال الوفد: إن هذا أفضلنا رأياً وعلماً، مقدَّمٌ علينا، نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه، أمَّره الأمير علينا وأمرنا ألا نخالفه، وإن الأسود والأبيض عندنا سواء، لا يفضُل أحدٌ أحداً إلا بدينه وتقواه، فأومأ إلى عبادة أن يتكلم في رفق حتى لا يزعجه، فقال عبادة: إن فيمن خلفتُ من أصحابي ألف رجل كلهم مثلي، وأشد وأفظع سواداً مني، لو رأيتهم كنتَ أهيبَ لهم مني، ولقد ولَّيتُ وأدبر شبابي وإني مع ذلك- بحمد الله -ما أهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني جميعاً، وأصحابي هُم هم، رغبتنا وهمتنا الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، والله ما يبالي أحدنا أكان له قناطير الذهب أم كان لا يملك إلا الدرهم، نعيم الدنيا ليس بنعيم، ورخاؤها ما هو برخاء، بذلك أمرنا الله وعهد إلينا نبينا، تقضَّى زمن الحل وهذا زمن العقد.

بعض المواقف يا رجال حرائرٌ
والبعض يا بن الأكرمين إماءُ

وقع الكلام منه موقعًا عظيما، فقال لأصحابه : هل سمعتم مثل كلام هذا قط؟ !القد هبتُ منظره . .وإن قوله لأهيب عندي من منظره، وما أظن ملكهم إلا سيغلب الأرض كلها .

نعم :

كلـمــاتهم قُضُبٌ وهــن فــواصلُ
كـل الضــرائب تحتهن مفـاصــلُ
إنما الألفاظ نطقٌ ورسوم المعــاني
روح هــاتيــك الجـــســومْ

ثم أقبل على عبادة ليسلك معه طريق الإرهاب في قالب النصح، فيقول: قد سمعتُ مقالتك، ولَعَمْري إنكم ما ظهرتم على من ظهرتم إلا بحب الدنيا، ولقد توجه لقتالكم ما لا يحصى عدده من الروم ما يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم، فنفرض لكل رجل منكم دينارين، ولأميركم مائة، ولخليفتكم ألفًا، خذوها وانقلبوا إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوة لكم به .

عجبًا له من أسلوب شفقة الضرة على الضرة، إنه ليعلم أنهم ليسوا بطلاب دنيا، ولكنها محاولة رجل يائس أراد أن يصنع شيئاً يُعْذَر به أمام قومه .

يحاول الأقزام دائماً - معشر الإخوة - أن يستنزلوا العظماء من عليائهم ليشاركوهم تدني أفكارهم ..إنه يعرض هذه المساومة وهو يدرك ويعترف أن المسلمين بلغوا منزلة تخولهم لملك الأرض كلها، ومع ذا يعرض عروضه المتدنية على قوم حالهم :

اشترانـــا مـــنا فقـــلنا ربحـــنا

لا نقـــيـــل يا رب ولا نستـــقيلُ

لكن :

ومـــن يــكُ أعــوراً والقـــلب أعمـــى

فكـــل الخـــلـــق فـــي عينيـــه عـــورُ

تعجب عبادة من هذه العقلية التي لا تعرف رباً غير المال، وقال بصوت كله ثقة وإيمان : يا هذا !لا يغرنك مَن حولَك .. لا تغرنك نفسُك .. لا يغرنك أصحابُك، لعمر الله !ما هذا بالذي تخوفنا به، ولا والله ما هذا بالذي يردنا عما نحن فيه، ولئن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا في رضوان الله وجنته، والله ما من شيء أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من أن نقتل لتعلو كلمة الله، والله ما منا رجل إلا وهو يدعو الله صباح مساء أن يرزقه الشهادة في سبيله، وألا يرده إلى أرضه ولا إلى أهله إلا بنصر المسلمين، فانظر فليست إلا خصلة من ثلاث، اختر أيها شئت، ولا تطمع نفسك في باطل، بذلك أمرني الأمير، وبها أمره أمير

المؤمنين وهو عهد رسول الله ﷺ مِن قبلُ إلينا، هذا ديننا الذي ندين الله به، فانظروا لأنفسكم.

فلـيس الليث مـن جـوع يقـادُ
إلـى جيف تحـيـط بها كـلابُ
أنبقـى فـي الحـياة بلا لـسـان
وقد نطـقت بحاجتهـا الحمـيرُ

قال المقوقس : أفلا تجيبون إلى خصلة غير هؤلاء الثلاث؟ فوقع قول المقوقس على آذان صماء من عبادة ، ورفع يديه يشير إلى السماء مرة ويخفضها إلى الأرض أخرى .

ويبعـثـهـا حـــرة لا تـضيـقُ
بكـيـد العـــواذل واللـــوم

يقول : لا ورب هذه السماء، لا ورب هذه الأرض، لا ورب كل شيء، ما لكم عندنا من خصلة غيرها، فاختاروا لأنفسكم.

نحن نهدي الخلـق زهـراً وثمـاراً
وسـوانا يبـعث النـار ضـرامـا
كـل نمـــرود إذا أوقـد نـاراً
عـادت النيـران بـرداً وسلامـا

عندها أذعن وبدأ يشاور أصحابه، فامتنعوا عن الإسلام، ثم امتنعوا عن الجزية، وقالوا : لئن دفعناها لم نَعدُ أن نكون لهم عبيداً، وللموت خير من هذا، فقال المقوقس : أجيبوني وأطيعوا القول، والله ما لكم بهم من طاقة، وإن لم تجيبوهم طائعين لتجيبُنَّهم إلى ما هو أعظم منها مكرهين، فأبوا وامتنعوا، فاقتحم المسلمون عليهم أحد حصونهم في هيمنة تكبير ارتجت لها الأرض معلنة : ألا كبرياء في الأرض إلا وكسرت شوكتها، وقلبت ظهراً لبطن، ولم يبق إلا كبرياء الله .

أدت رسالتَها المنابرُ وانبرى حد السلاح بدوره ليقولا

آن الأوان لأن نخــاطــر بالــدمِ
مَن لم يخاطـر بالدمـا لم يسلـمِ

ففتح حصنهم، وكسرت شوكتهم، وذَلوا، فلام المقوقس قومه، وقال : ألم أخبركم؟! أما والذي يُحْلَف به لتجيبنهم إلى ما أرادوا، فلو أن هؤلاء القوم استقبلوا الجبال لأزالوها، وما يقوى على قتالهم أحد، أطيعوني . .

فأذعنوا . . وذَلوا . . وخنعوا . . ودفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

فيا ناشد الحق في مجامع المبطلين! لا رد الله ضالتك، أتطلب الفَص من اللص، وتقيس في مورد النص .

يا قوم كفوا عن الشكوى لذي صمم

لا يُسمع الصم إلا الصارم الذكرُ

لقد كان ذلك الجيل محتفظاً بشخصيته المتميزة القوية إزاء تلك الحضارات المادية الدنيوية في تلك المعارك السقيطة، ما فقدوا شيئاً من مبادئهم وقيمهم، عبروا دجلة المادة، وفرات البهرج، فلم تبتل ذيولهم فيها؛ لأنهم عبروها بإيمان بالله عميق، وموازين دقيقة، وقيم أهلتهم للعزة والقيادة، والسمو والريادة، فانتزعوا عجلة القيادة من القيم الهابطة، والمفاهيم والعقائد الفاسدة، والمثل المفترئة؛ لأن المواجهة كانت بين القيم والمفاهيم، والمألوف أن تسري سنة الله.. أن البقاء للأصلح : ﴿**فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ**﴾ [الرعد: ١٧] .

• • الجيل الحاضر..واغتراره بالدنيا • •

معشر الإخوة : ولما التفتت الأمة إلى غير تلك القيم ولم تزن الدنيا بميزانها الحق؛ رفعت الطين، ووضعت الدين، فقدت وهي على البر هويتها ومقوماتها، فإذا عموم أبنائها دون آحادهم عقولٌ في طلب الدنيا، بُلْه عما خلقوا له، طلاب أمانٍ، دين أحدهم لعقة على لسانه، عن الباقي مصروف، وبالفاني مشغوف،

بالخوف من كل شيء إلا من مولاه معروف ..بالخزي محفوف، محب للدنيا .. كاره للموت، من خوف الموت بالموت وأشد من الموت .. يعتبر الدنيا رأس ماله، ومنتهى آماله، يود لو يعمر ألف سنة حتى إذا جاءه الموت خرج من الدنيا وهو حزين متلهف على ما يفارقه، كاره مستبشع ما يستقبله ..غثاء هباء، لا ينفع ولا يدفع ولا يرفع ولا يصفع ولا يشفع .

إنـمـا تلك مـسـوخ ورثت
نسـبـة الإسـلام عـن أم وجَدْ

وعندها :

تشـابـهـت البهـائـم والعبِدًّا
علينـا والـمـوالـي والصمـيمُ

أولئك الجيل فهموا الإسلام فهماً دقيقاً، فساروا بمفتاح السمو يفتحون المشارق والمغارب، لا يستعصي عليهم قُطر، ولا يستعصي عليهم مِصر ..الحصون تُفتَح، والقلوب تُفْتَح، والقيم الصحيحة تسود، والموازين تُصَحَّح، فكانوا السماء .

ولما تخلفت هذه المفاهيم عند مَن بعدهم أصيبوا بمركَّب النقص، فكانوا السماوة .

وشتان ما بين السماوة والسماء .

ألا إن من السخافة أن يقال : إن السماوة والسماء واحد؛ لأن النسبة إليهما في اللغة واحدة (سماوي) لا يقول به إلا غبي أو صبي أو عقل وراءه خبي.

من رام شهداً فإن النحل مصدره
ومن بغى السم فليطلب له الرقطا

سر السمو إلى السماء لذلك الجيل؛ هو تحررهم من كل سلطان سوى سلطان الله، يعدلون بعدل الله، ويزنون بميزان الله، ويعملون على اسم الله لا سواه ..يوالون الله ويعادون أعداء الله.. رقابة الله كمنت في ضمائرهم، والطمع في رضا الله والخوف منه أغناهم عن رقابة البشر وعقوبتهم، فصار المسلم حقاً هو الأعلى.

يقف موقف المجرد من كل قوة مادية، فلا يفارقه شعوره بأنه الأعلى، يتداعى عليه الأعداء وهو كالطود ثابتاً لا يتزحزح، وهَبْها كانت القاضية ..فماذا يضيره؟

الناس يموتون وهو ورهطه يستشهدون، فيغادرون الأرض إلى رحمة الله حين يغادرها غيرهم إلى غضب الله .

هو الأعلى ..

من الله يتلقى، وإليه يرجع، وعلى منهجه يسير.. يسود مجتمعه عقائد باطلة مغايرة لما هو عليه، فلا يفارقه شعوره بأنه الأعلى .

يضج الباطل ويرفع عقيرته التي قد تعشى معها الأبصار، وتغشى البصائر، فلا يفارقه الشعور رغم الضجيج. .لأنه الأعلى.

يغرق المجتمع في شهواته، ويمضي مع نزواته إلى الوحل والطين، فينظر من أُفُقه العالي إلى الغارقين في الوحل. .اللاصقين بالطين، وهو مفرد وحيد، فلا تراوده نفسه على خلع ردائه الطاهر، والانغماس معهم في الوحل. .لأنه الأعلى بلذة الإيمان والتقوى.

يقف قابضاً على دينه كالقابض على الجمر، في مجتمع شارد عن القيم والدين، وهم يهزءون به ويسخرون، فيقول بقول من سبقه في موكب الإيمان العريق، والطريق الطويل: ﴿**إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ**﴾ [هود: ٣٨] ويتلمح نهاية الموكب الفائز الوضيء، ونهاية القافلة البائسة في قول الله: ﴿**فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾ [المطففين: ٣٤-٣٦].

بهذا الشعور، وبتلك القيم. . ارتقت الأمة في نظامها وأخلاقها وحياتها وكل شئونها إلى قمة سامية سامقة، لم ترتفع إليها من قبل قط، ولم ترتفع إليها من بعد إلا في ظل منهاج ذلك الجيل.

فانهض فقد طلع الصباح

ولاح محمر الأجيمْ

وشتان ما بين السماء والسماوة

• • عزة وشجاعة الجيل الأول • •

عزة يزيد بن معاوية أمام قيصر

هاهو جيش معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه بقيادة ابنه يزيد يقف على أطراف القسطنطينية قريباً من أسوارها – جيشٌ مغفور له كما ثبت في صحيح البخاري – وفي الجيش بعض أفراد ذلك الجيل على رأسهم :أبو أيوب الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه، حل به مَرَض – مَرِض مرضاً شديداً – فأتاه يزيد ليعوده، ويقول له : ما حاجتك أبا أيوب ؟ قال :ادفني عند أسوار القسطنطينية، فإني سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول : « يدفن عند أسوار القسطنطينية رجل صالح وإني لأرجو الله أن أكون أنا هو ».

إن النفــوس إذا سمــت وتهــذبت
وتوجهـت تعلــو إلــى جــناتهــا

جاءته المنية هناك، ما ضيع وما قصر وما فرط رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه.. القتال دائر، ويأمر يزيد بتكفينه، فيحمل على السرير ..تخرج به الكتائب لتنفذ وصيته، ويدفن عند الأسوار تحت سنابك الخيل، ينظر قيصرهم إلى سريره يُحْمَل تحت ظلال السيوف، فيرسل قيصر إلى يزيد : ما هذا الذي أرى؟ فيقول يزيد : هذا

صاحب رسول الله ﷺ قد سألنا أن نقدمه في بلادك، ونحن والله الذي لا إله إلا هو منفذون وصيته أو نهلك جميعاً ونلحق بالله.

فيا لَلّه!

إن لم يكن في حياة المرء من شرفٍ
فإنــه بالردى قد تشـــرف الرمـــمُ

قال: عجباً! أين دهاؤك؟! وأين دهاء أبيك الذي يُنسب له؟! يرسلك أبوك فتأتي بصاحب نبيك ونقول: ﷺ وتدفنه في بلادنا حتى إذا ما وليت أخرجناه للكلاب؟!

فقال يزيد في سمو وسماء وعزة: إنك كافر بالذي أكرمت هذا له، وإني والله ما أردت إيداعه بلادكم حتى أودع كلامي آذانكم، والله الذي لا إله إلا هو مَن أكرمتُ صاحبَ رسول الله ﷺ له، لئن بلغني أنه نُبش قبرُه، أو مثل به، لا تركتُ في الأرض الإسلام نصرانياً إلا قتلته، ولا كنيسة إلا هدمتها.

جعــل الخطــام بأنف كــل مخالفٍ
حتــى استقــام له الذي لم يُخْطَــمِ

فقال: لِلّه أنت، أبوك كان أعلم بك، فوحق المسيح لأحفظنه بيدي إن لم أجد من يحفظه.

ولا عجب! فالحق قد أجاب، والذل قد وجب.

ومـوجــة النـهــر في عــين الجبان بها
غــول وحــوت وتنين وتمســـاحُ

وشتان ما بين السماء والسماوة !

وتبقى الآحاد والفئات ممن استقت من ذلك النبع الصافي على تلك العزة في كل آن، محلقة سامية للسماء ناطقة تقول:

ومـن لم يـقـوَّم بهـدي الكـتاب
فــبالسيـــف يا صحـابـي قُـمْ

• • عزة أبي يوسف المراكشي أمام ملك كستانة • •

يكتب ملك كستانة في أواخر القرن السادس إلى السلطان المسلم أبي يوسف المراكشي يهدده ويعنفه، ويطلب منه تسليم بعض بلاد المسلمين، وكان فيما قال في غطرسة وكبرياء : أراك تماطل نفسك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فما أدري الجبن بطَّأَ بك، أم التكذيب بما وعدك نبيك .

فلما قرأ أبو يوسف الكتاب تنمَّر، وغضب، وتربد وجهه، وأرغى وأزبد، ثم مزقه وكتب على رقعة منه بقلم .. يفتك الشعور ويفلق الصخور : ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [النمل: ٣٧] الجواب ما ترى لا ما تسمع .

فلا كتب إلا المشرفية عندنا
ولا رسل إلا للخميس العرمرمِ
وقام قيام الليث فار غليله
وقد برزت أنيابه ومخالبهْ

استنفر الناس، ودعا للجهاد، ورغب في السعادة، وحاله:

أججوها حمما وابعثوها حمما

قربوا مني القنا قد كسرت القلما
دوت بكل قبيلة ومحلة يحاته فتجاوبت أصداؤها

سارع مائة ألف مسلم متطوع للبذل والتضحية، والذب عن بيضة المسلمين، وإعزاز دين رب العالمين؛ لينضموا إلى الجيش الذي يبلغ مائة ألف من الموحدين، حال الواحد منهم:

ارمِ بي كل عدو فأنا السهم السريع

وإلا:

فلا نعمت نفس ولا أفلح امرؤٌ
ولا انهال هطّال ولا لاح مشرقُ

مضى الليث إلى الأندلس بجيش يؤمن بالله، ويستقي من نبع وحي الله.. شعاره: تكبير الله، وهذا ما وعدنا الله، وصدق الله، وحسبنا الله.

فكانت الملحمة التي تنزل معها نصر الله على حزب الله، فقتلوا من العدو مائة وستة وأربعين ألف قتيل، وأسروا من أسروا نصراً من الله، وحقت كلمة الله : ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران : ١٢٦] .

معشر الإخوة والبنين !والله ما قام عبدٌ بالحق و كان قيامه لله وبالله إلا لم يقم له شيء، ولو كادته السماوات والأرض والجبال لكفاه الله مؤنتها، وجعل له منها فرجا ومخرجا، وإنما يؤتى من تفريطه وتقصيره .

* فاعلم أيها السامي للسما :

مَن يخف سلطان ذي العرش المجيدْ
خـافــه كــل قـريــبٍ وبعـيــدْ
فمـا رمـيت ولكـن الإله رمـى
فكيف يُهزَم مَـن بالله ينتصـرُ
والله أكـبر صـوتٌ تقشعـر له
شمُّ الذرى وتكاد الأرض تنفطرُ

معشر الإخوة !نَصرَ الله ذلك الجيل، لأنه أخذ بمقومات النصر، استقى من نبع الوحي، وطبق ونفذ، وتميز وفاصل، وضحى بالزائل، فكانوا السماء بحق، صدورُ محافل، وقادةُ

جحافل، يقذفون بكلمة الحق مجلجلة على الباطل، فإذا الحق ظاهر، والباطل زاهق نافر، يقذفون بعزائمهم فإذا الكفر مكسور، والإيمان منصور.

إن تلك المقومات للسمو إلى السماء لم تبلَ ولم تمت؛ إنما هي كامنة، وتلك الشعل لم تنطفئ فهي في كنف القرآن والسنة آمنة، فلا يزال الله يغرس غرساً يستعملهم في طاعته إلى يوم القيامة، إنهم من كانوا على مثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، فكن أو لا تكون:

ومن يجد ترباً وماء غرسا
وبذل المال وحاط الأنفُسا

فبادر أُخَيَّ لرفع اللواء
على كل قِطْع ولا تحجمِ

وزف هدى الله للعالمين
بآياتِ قرآنك المحكمِ

سمواً سماءً بوحي الإله
وجاهد وصابر ولا تسأمِ

* * *

* فهرس الكتاب *

الموضوع	الصفحة

* فهرس الكتاب *